الكواكب . اما الان فلو شبّهناها في جانب الملايين من النجوم المعروفة بحبّة رمل ضائعة بين رمال اعظم الصحاري لَما بالغنا في التشبيه . ومن جهة اخرى اذا امعنّا رائد الفكر في عظم سيّارتنا واتساع قاراتها وبحارها وكثرة بلادها ومدنها ادركتنا الدهشة عند التزامنا — رغماً عن ذلك الكبر النسبي — بالاقرار ان عالمنا هذا ليس الّا ذرّة تائهة في الفضاء المملوء بعدد لا يحصى من الكواكب التي تكاد الشمس نفسها لا تُذكر بجانبها عظماً وضياء

ولا نتمالك عند سبر اعماق الفضاء الرائعة عن الانذهال خصوصاً من عظم القدرة والحكمة الالهية التي اوجدت تلك ملايين العوالم بكل اشكالها المتنوعة وحركاتها المنتظمة وذلك بمجرد الارادة الخالقة . قال الرب له المجد : كوني . فكانت اطاعةً لامره القدوس . فلعمري ما اصدق آية صاحب المزامير حيث تغنّى بجلال العزّة الالهية قائلاً : « السموات تروي مجد الله والجلد يبشر باعمال يديه »

العلائق الاولى بين فرنسة وسوريّة

نظر تاريخي للاب هنري لامنس اليسوعيّ

ليست العلائق بين فرنسة وسوريّة حديثة العهد فانّها ترتقي الى قرون النصرانيّة الاولى حتّى الازمنة التي سبقت حلول قبائل الفرنك في بلاد غالّية . فكأنّ البلادين منذ تعارفا عشق اهلها بعضهم بعضاً فتراخيا وتصافحا والبحر بينهما وُصلةٌ لايكترثون لاهواله وويلاته

١ مآثر السوريين في فرنسة

انّ من يسرّح النظر في تاريخ الفينيقيين ورحلهم المختلفة الى جهات الغرب اذ كانوا يخرون البحار ويتاجرون مع اقاصي البلدان يجد انّهم منذ سالف الزمان خصّوا بمساعيهم سواحل غالّية التي احتلّها الفرنسويّون بعد ذلك في القرن الخامس بل توغّلوا

في البلاد ونقلوا اليها محصولات الشرق المتنوّعة من انسجة وحرائر وعطور واقاويق . ثم استوطن كثيرون منهم بعد مدّة حواضر تلك الجهات ومدنها العامرة كليون وبوردو وباريس وزبونة واورليان فكانوا يعيشون فيها في احياء منفردة حرصين على حفظ عاداتهم ولغتهم الوطنيّة . وكان الفرنسيّون يتهافتون الى مخازنهم فيبيعون منهم زجاج صيداء وارجوان صور وانسجة بيروت وخمر غزّة وفستق دمشق وبردي مصر ومصنوعات الشرق الاقصى التي كانت تأتي بها قوافل العرب من العجم والهند والصين الى بلاد الشام فينقلها السوريون الى الغرب

وقد زاد نفوذهم بعد ان فتح الملك كلوفيس مع قبائل الفرنك بلاد غالية في اواخر القرن الخامس وصارت فرنسة في عهدة سلالته الميروفنجيّة . فكان الفرنسويون بعد تنصّرهم ينظرون الى المهاجرين الى بلادهم من اهل سوريّة بعين الرضى وطيب الخاطر ويعدّونهم كممثلي الاراضي المقدّسة ويسرعون الى اقتناء ما يأتون به من ذخائر اورشليم والاماكن المشرّفة بآثار السيّد المسيح

وللسوريين في فرنسة مآثر دينيّة معدودة فانّ كثيرًا من التقاليد الدينيّة نفذت بين اهل فرنسة في تلك الحقبة بواسطة السوريين . وممّا ثبت اليوم لدى العلماء انّهم خلّفوا لهم في عدّة مُدن آثارًا حسنة في الصناعة الهندسيّة والابنية الدينيّة ونقش الكنائس وتزيينها بالصور . بل بلغ نفوذهم الى أن تمكّن بعضهم من الارتقاء الى الكرسي الاسقفيّة في فرنسة وصار واحد منهم اسقفاً على باريس نحو السنة ٥٩٦ م . بينما كان غيرهم من مواطنيهم اتّصلوا الى رئاسة الكنيسة جمعاء بصفة احبار رومانيين . وقد ورد في تاريخ فرنسة لغليلموس الطوريّ انّ مستعمرات جالية السوريين كانت منتشرة في انحاء البلاد حتّى لم تكد مدينة تخلو منهم . ويؤيد قولهُ ما وُجد في بعض المدن من قبورهم مع الكتابات المدفنيّة الدالّة على اصلهم السوريّ . ومن جملتهم واحد ينتسب الى لبنان . وذُكر في ترجمة القديس كولمبان من اهل القرن السادس انّ امرأة من سوريّة اضافتهُ في بيتها في مدينة اورليان اذ كان الملك تيارّي الثاني حكم بنفيهِ فلم يجد مأوى عند احد من الاهلين غير المرأة المذكورة وزوجها السوري وكان ضريرًا

واكثر مَنْ نفذ تاثيرهم في انحاء غالية وفرنسة الرهبان الشرقيّون فانّ القديس اثناسيوس الاسكندري لمّا نُفي بدسائس الاريوسيّين قدم الى تراف سنة ٣٣٦ والى

رومية سنة ٣٤١ فعرّف اهل الغرب بالرهبانيّات الشرقيّة ولاسيما بمنشئ المناسك المصريّة القديس انطونيوس الكبير وكان هو كتب سيرته العجيبة وكان بصحبته راهبان حرّك منظرهما في قلوب الغربيين الشوق الى الاقتداء بهما . وما لبث بعض النسّاك الشرقيين كالقديس ابراهام او المتشرّقين ككاسيان ان أشاعوا في فرنسة الآداب الرهبانيّة فأحيوا فيها معالم القداسة وجدّدوا في الغرب عجائب رهبانيّات الشرق

وممّا حبّب الشرق وخصوصاً سوريّة وفلسطين الى الفرنسويين ما كان يُنقَل اليهم من مآثر علماء الشرق كالقديس يوحنا فم الذهب والقديس كيرلّس الاورشليمي والقديس يوحنا الدمشقي واوسابيوس القيصري وما كان يحرّره في بيت لحم القديس ايرونيموس فكلّ ذلك كان يزيد في القلوب اعتبار الشرق وعلوّ مقامه

ولسنا لننكر انّ بعض السوريين في انحاء فرنسة اثاروا في النفوس نفوراً لمطامعهم وحرصهم على جمع الثروة بطرائق دنيئة غير مأنوسة . الّا انّهم في الاجمال كانوا يعدّون ارباحهم شرعيّة لما يتكلّفونهُ من النفقات الطائلة باسفارهم وتغرّبهم عن اوطانهم وبما يلحقهم من الخسائر برّاً وبحراً ولاسيّما بما يؤدونهُ للدولة من المساعدات الماليّة بمبادلة النقود الرائجة في البلاد المختلفة

ومن ثمّ نرى بعض المبالغة في ما كتبهُ في حقّ السوريين في القرن الخامس الكاتب الفرنسوي سلفيان كاهن مرسيلية اذ نبزهم بسهام اللام ونسبهم الى الظلم في معاملاتهم التجاريّة

وممّا تشهد لهُ الآثار من فضلهم انّهم علّموا اهل فرنسة بعض الصنائع الشرقيّة كتطريز الانسجة وتلوينها وتقصيب الثياب

وخلاصة القول انّ السوريين وجدوا منذ العهد القديم في فرنسة واهلها ما يلائم طباعهم ويجتذبهم الى معاملات الفرنسيس

٢ اوّل مآثر الفرنسويين في سوريّة

انّ مآثر السوريين في بلاد غالية وفرنسة كان لها صدى انعكاس في قلوب اهلها . فلم يكتفوا بمؤانسة مَن هاجر منهم الى اوطانهم وبالاستفادة من معاملاتهم واقتناء سلعهم الثمينة بل احبّوا ان يرحلوا الى اصقاعهم الشرقيّة ليروا عياناً ما

صوَّرتهُ لهم مخيلتهم من عجائبها وغرائبها

وكان اوَّل باعثٍ حدا باهل غالية الى ان يؤمّوا سوريَّة زيارة الاراضي المباركة التي قدَّسها السيّد المسيح بحياتهِ الالهيَّة ومعجزاتهِ وآلامهِ ومرتهِ وقيامتهِ وصعودهِ الى السماء. ولدينا من ذلك اثرٌ فريد يرتقي الى عهد الملك قسطنطين ألَا وهو دليلٌ كتبهُ (نحو سنة ٣٣٣) احد زوَّار بيت المقدس من مدينة بوردو فعُرف كتابهُ بالدليل البُرْدِغلي (Itinerarium Burdigalense) وهو اقدم ما عُرف من ذلك عدَّد فيهِ مراحل سفرهِ من وطنهِ الى اورشليم ووصف مزارات الاراضي المقدَّسة

ولنا شاهد آخر على قولنا في اواخر القرن الرابع نعني بها الرحلةَ المنسوبة الى القديسة سيلفية وقيل القديسة ايثريا وما لا شكَّ فيهِ انَّ اصل الكاتبة من بلاد غالية من اقليم اكويتانية اكتُشف بسفر رحلتها الى الاراضي المقدَّسة منذ نحو ٣٠ سنة فصار لاكتشافهِ وقعٌ عظيم لكثرة ما ورد في رحلتها من الفوائد التاريخيَّة والجغرافيَّة والمعلومات المختلفة عن العادات الشرقيَّة والطقوس الجارية في كنائس فلسطين وخصوصاً في اورشليم وبيعها الملوكيَّة وعن ذخائرها الثمينة. وزارت طورسينا وادیارها ثمَّ قصدت مدينة الرها واكرمت هناك الرسالة المنسوبة الى السيّد المسيح والمرسلة الى ملكها الابجر. وهي تروي كلَّ ذلك بالتفاصيل كما رأت او سمعت من رواة ثقات وكانت لا تقبل كلامهم الَّا بعد انتقاد صحَّتهِ

وعقب هذين الرحالتين زائرٌ آخر اعلى مقاماً واشرف رتبةً وهو القديس اوشار رئيس اساقفة مدينة ليون حجَّ الى فلسطين سنة ٤٤٠ م مارًّا بسواحل الشام. وقد وصف كما لفيهِ ما عاينهُ من المآثر الدينيَّة والمزارات المقدَّسة

ومثلهُ اسقف آخر فرنسوي الجنس اسمهُ أرْكلفس قدم الى زيارة الاراضي المقدَّسة بعد الفتح العربي بقليل سنة ٦٧٠ م واضاف الى سلفائهِ معلومات جديدة دوَّنها في رحلتهِ

وكم غير هؤلاء اقبلوا الى سوريَّة وفلسطين لم يحرّروا اخبار رحلتهم وانَّما شهد على مجيئهم القديس ايرونيموس في كتاباتهِ من بيت لحم فانَّهُ يقول في تفسيرهِ لسفر حزقيال: «قد يأتينا كلَّ يوم زوَّار من كلّ البلاد حتَّى من الهند ومن جهات ايطالية واقاصي غالية»

وقد جاء في ترجمة القديس سمعان العامودي لتاودوريتس في القرن الخامس انهُ كان بين زوَّارهِ حول عامودهِ الذي عاش فوقهُ نحو ٤٠ سنة عدَّة غرباء من كل البلاد ومن جملتهم اهل غالية . ومما ورد في ترجمة القديسة جنوفيفة انَّ القديس اوصاهم بان يهدوا سلامهُ الى تلك البتول البارَّة التي يكرمها اليوم الباريسيُّون كشفيعة عاصمتهم

ومما وُجد في مثوى من قرى حوران كتابةٌ ضريحيَّة على قبر احدى الفرنسويات من مدينة روان تدعى ستركونية توفيت هناك في اواسط القرن الرابع

وفي القرن الرابع ايضاً لمَّا ثارت البدعة الاريوسيَّة ثمَّ في الخامس البدعة البيلاجيَّة وانتصر لها بعض القياصرة والملوك لم يكفَّ جملة من اساقفة الغرب عن الدفاع عن حمى الايمان وكان من عدادهم بعض اساقفة غالية نفاهم الهراطقة من كراسيهم فوردوا الى سوريَّة وفلسطين بينهم اساقفة طور وباريس وأرل ومرسيلية كأنهم يعدُّون سوريَّة «فرنسة الشرق» كما دُعيت بعد ذلك . وربَّما حبسوها قطراً واحداً مع فلسطين فأكرموها إكرامهم للاراضي المقدَّسة وكانوا يرسلون اليها زكاتهم ويبتغون ان يحصلوا على شيءٍ من ذخائرها كما اوصت الملكة رَدْغوندة ان يؤتى لها ببعض هذه الذخائر لديرها الذي شيَّدتهُ في مدينة پواتيه

على انَّ هذا التهافت الى سوريَّة والاراضي المقدَّسة لم يُحصر في ارباب الدين وأتقياء الناس . بل اتَّسع نطاقهُ منذ عرف الغربيُّون غنى بلاد الشام وخصب تربتها ووفرة ثروتها وجملة محصولاتها مع اعتدال هوائها وصفاء جوِّها . وكان المسافرون اليها اذا عادوا الى الاوطان يفيضون في وصف محاسنها ويتعتونها بمركز الحضارة ومنبع التمدُّن كالفيلسوف جونيوس في اواسط القرن الرابع الذي يعدِّد مدن سوريَّة الداخليَّة والساحليَّة كدمشق وبعلبك واللاذقيَّة وطرابلس وبيروت وصيداء وصور وعكَّا ويخصُّ كلَّ بلد بما تفرَّد بهِ من المزدرعات والمصنوعات والحرَف ويقول بالاجمال انَّ مدن سوريَّة لا يفي الاحصاء بغناها البليغ

وكان محبُّو الآداب والعلوم يشيدون بذكر مدارس سوريَّة ولا سيَّما انطاكية ودمشق وقيسريَّة وغزَّة . اما بيروت فأطرأوا مدارسها الفقهيَّة التي نالت بها قصبة السبق على سواها حتَّى مدارس رومية والقسطنطينيَّة

وكذلك الفنون الجميلة فانّ الكتبة الغربيين كانوا يقضون العجب ممّا يشاهدونهُ في سوريّة من الابنية الشاهقة المحكمة الهندسة الواسعة الارجاء الوافية بكل اسباب الرفاهيّة والهناء الموثّثة بالرياش الفاخرة والحليّ الثمينة

وقد سبق الزائر البُرْدِغلي ثمّ بعدهُ القديس اوشار ففصلا الحكم قبل عدّة قرون بما اشكل على الخلفاء في هذه المدّة الاخيرة بخصوص جبل الكرمل أهو من فلسطين ام من سوريّة فاتّفقا على انهُ داخل في حدود الشام على خلاف ما أفتى بهِ الانكليز اذ جعلوهُ ضمن تخوم فلسطين

كذلك الاسقف أرْكلف في اواسط القرن السابع وقبل المؤرخين المسلمين بنحو مئة سنة ذكر ما شاع بعد ذلك عن الجامع الاقصى وعن الجامع الاموي من الروايات الضعيفة وأثبت عن الاول انهُ ليس فيهِ يدٌ لعمر بن الخطّاب وعن الثاني انّ المسلمين ضبطوا كنيسة مار يوحنّا برمّتها يوم الفتح ليس كما يقال انها قُسمت اولاً شطرين شطر منها دخلهُ خالد بن الوليد عنوةً وشطر ولج فيهِ ابو عبيدة بالامان فابقاهُ للنصارى ثم نزعهُ الخليفة الوليد من ايديهم

وافادنا الزائر الفذ من مدينة بلزنسة في القرن السادس (سنة ٥٧٠) عدّة تعليمات عن سوريّة بعد ان دهتها تلك الزلازل المهولة التي كادت تلحق بالدقعاء كثيراً من مدنها ولاسيّما الساحليّة فانهُ سار على سواحل قيليقية وسوريّة وذكر دمار مدن فينيقية كأنفة وجبيل ثم بيروت التي نعتها بالمدينة البالغة الرونق والزهو (splendi-dissima civitas) العامرة منذ زمن قريب بالعلوم الفقهيّة وذكر ما اخبرهُ اسقفها بانهُ أحصى ٣٠٠٠ ممّن عرفهم من اهلها الذين قُتلوا بتلك الزلازل ما عدا الغرباء ثم انتقل الى صيداء ووجدها ايضاً خراباً ونسب اهلها الى قبح السلوك (homines in ea pessimi) وعلى خلاف ذلك مدينة صرفد قال انها صغيرة لكنّها عريقة في الدين. اما صور فوصف عظم غنى سكانها وحسن مصانعهم وانسجتهم المختلفة ولاسيّما حرائرهم على انهُ قبّح عليهم سوء آدابهم. واستحسن آداب العكّاريين وامتدح ادارة مدينتهم

فهذه الاوصاف وغيرها حرّكت في قلوب الفرنسويين الرغبة في سكنى بلاد الشام اما للتجارة مع اهلها واما ليقضوا فيها عيشة هنيئة بعيداً عن القبائل الجرمانيّة

الخشنة المحتلة في بلادهم . وقد سبق المشرق ووصف في عدده الاخير مهاجرة القديس ايرونيموس الى فلسطين وبناءهُ الاديرة فيها لاهل الغرب . ولا جرم انَّ غيرهُ ايضاً ودّوا ان يقتدوا بامثالهِ فانتفعت سوريَّة من مجاورة الفرنسويين كما استفادت فرنسة من الجالية السوريين

على انَّ ظهور العرب في الشام وفتحهم لمدنها لم يلبث ان اخمد تلك الحركة المتبادلة بين فرنسة وسوريَّة لكثرة ما كانوا يجدونهُ في سبيلهم من العوائق ذهاباً واياباً . وقد وضع العرب تلك الحواجز بين نصارى سورية وفرنسة خوفاً من نفوذ الاجانب في بلادهم . فبقي حبّ السوريين الى فرنسة مكتوماً في سويداء قلوبهم كالنار تحت الرماد تبدو متأججة اذا وافقتها الاحوال

النصرانية وآدابها
بين
عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل الحادي عشر

العلوم والصنائع بين نصارى العرب

بديهيٌ انَّ عيشة العرب الساذجة في البوادي تحت الخيم بين الشاء والنوق لا تحتاج الى علوم واسعة وصنائع راقية . واحسن ما قيل في ذلك ما ورد في كتاب طبقات الامم للقاضي ابي قاسم صاعد الاندلسيّ (١ حيث بيَّن إجمالاً ما كان عليهِ العرب من البداوة وقلَّة الاكتراث بالعلوم سواء كانوا من اهل المدَر او اهل الوبر حتَّى قال انهُ « لم يكن فيهم عالم مذكور ولا حكيم مشهور » على انَّهُ استثنى منهم

١) راجع طبعتنا (ص ٤١—٤٧) التي سبقنا بنشرها مع شروح وفهارس سنة ١٩١٢ فاختلسها عبد الرؤوف افندي الدبّاغ ونشرها في مصر بعد تجريدها من فوائدها